أميرة المغرب

(ضحى)

ابراهيم شريحي

بين أزقة تطوان البيضاء والزرقاء، وجدت ضحى في قلبي مقبرة للحب
الذي خافت أن تحييه.

اميرة المغرب

(ضحى)

مدينة فأس

يقولون إنَّ الحزن في مدينة فاس له رائحة؛ رائحة تشبه مزيج المسك العتيق وورق البردي الذي جفَّ عليه الحبر منذ قرون. في ذلك الزقاق الذي لا تصله الشمس إلا لتمسح على جدرانه برفق، كان يعيش إبراهام. لم يكن مجرد كاتب، بل كان "جسداً من ورق"، يرتجف كلما هبت ريح القلق. كان يسكن في غرفة علوية ضيقة، سقفها منخفض لدرجة أنها تجبره على الانحناء، وكأن الغرفة نفسها تطلب منه الركوع أمام خيباته.

كان يمضي ساعات طوال يراقب بقع الرطوبة على الجدران، يتخيلها خرائط لبلدان لن يزورها أبداً، أو وجوهاً لأشخاص لم يحبوه. ومن خلف نافذته الخشبية ذات المشربيات المتهالكة، كان يراقب العالم الخارجي بعينٍ يملؤها الاغتراب. كانت فاس بالأسفل تضج بالحياة، بالأصوات، ببيع النحاس وصياح الباعة، لكنه كان يفضل "صمته" الذي يشبه ضجيج المقابر.

كانت عينه تبحث عن "أثر" واحد يبرر وجوده على قيد الحياة. كانت الأميرة ضحى تمرُّ من هناك في طريقها إلى المصلى الجنائزي أو في جولاتها لتفقد أحوال الرعية. لم يكن يراها كابنة ملك، بل كان يراها ككيان شعري هارب من زمن المعجزات. كانت تمرُّ محاطةً بحرسٍ غلاظ، يلبسون الدروع التي تعكس ضياء الشمس فتصيب عين إبراهام بالعمى المؤقت، لكن قلبه كان يرى بوضوح. كان يرى تلك النظرة الحزينة في عينيها، نظرة السجين الذي يملك كل شيء ولا يملك نفسه.

لم تكن الكلمات تسعفه، فكان يكتب ليمزق ما يكتب. كان يملأ غرفته بقصاصات الورق حتى أصبحت تشبه عشاً لطائر مهجور. في إحدى

لياليه "البيضاء" التي لم يزر فيها الكرى عينيه، سحب ريشته وغمستها في محبرة كأنها ثقب أسود، وكتب بمرارة

"يا ضحى.. هل تشعرين بالبرد في قصرك كما أشعر به في روحي؟ إنني أحبكِ حب الموتى للحياة، وحب الغرقى للیابسة. إن حبكِ ليس اختياراً، بل هو لعنة مباركة، أرتديها كل صباح وأخلعها كل ليل لأجدها قد نبتت في جلدي. كيف لي أن أقف أمامكِ، وأنا الذي لا أملك سوى حفنة من القوافي، وجيباً فارغاً إلا من مناديل مبللة بدموع العجز؟"

كان إبراهام يجسد تلك الشخصية التي تنبأ بها "دوستويفسكي"؛ ذلك الرجل "التحتي" الذي يعيش في صراع مع كرامته. كان يخرج في أنصاف الليالي، يطوف حول أسوار القصر العالية، يلمس الحجارة الباردة بيدين ترتجفان، يتخيل أن خلف هذه الجدران تنام المرأة التي سرقت منه النوم. كان يخاطب ظله الطويل على الجدران العتيقة، يسأله: «أأنا مجنون؟ أم أن الجنون هو ألا أعترف لها؟».

استمر هذا العذاب لسنوات، كان فيها يشيخ في اليوم الواحد ألف عام. كانت كل قصيدة يكتبها هي طعنة في صدره، لأنها تذكره ببعد المسافة بين زقاق العطارين وشرفات القصر الملكي. وفي ليلةٍ كأنها كفناً من الضباب، حيث كانت رائحة الياسمين تمتزج برائحة المطر الوشيك، شعر إبراهام بشيء

ينكسر بداخله. لم يعد الخوف يكفيه، بل صار الانفجار هو السبيل الوحيد للبقاء. قرر أن يضع حداً لهذه المسرحية الصامتة، وقرر أن يخرج من ظله ليواجه الشمس، حتى لو كان الثمن هو الاحتراق

لكن الحقيقة بدأت في ذلك اليوم الذي لا يغادر ذاكرته، اليوم الذي رأى فيه ضحى لأول مرة.

كانت السماء فوق مدينة فاس تتشح بلون رمادي كئيب، يشبه لون كفنٍ لم يُحكم نسجه. كان إبراهام يسير في جنازة غريب لا يعرفه، فقط ليهرب من صمت غرفته. وعند "باب بوجلود"، توقف الزمان. انفتح الزحام فجأة كبحرٍ يشقه نبي، ومرَّ الركب الملكي. لم تكن ضحى تركب هودجًا مغلقًا، بل كانت تمتطي خيلاً أبيض، كأنها قطعة من النور سقطت في وحل المدينة.

في تلك اللحظة، وقعت عيناه على عينيها. لم يكن لقاءً عابرًا، بل كان اصطدام كوكبين. رآها، فرأى فيها كل ما ينقصه؛ رأى الكبرياء الذي يفتقده، والجمال الذي لا يستطيع وصفه، والسكينة التي لم يعرفها قط. كانت بشرتها بلون الياسمين في الفجر، وعيناها تحملان حزناً غامضاً، حزناً أرستقراطياً يليق بأميرة، لكنه حزن كان يغازل حزنه هو، "حزن الصعاليك". ومنذ تلك الثانية، توقف إبراهام عن كونه إبراهام؛ أصبح مجرد ظلٍ يتبع طيفها، خادمًا للوهم الذي زرعته تلك النظرة في قلبه.

عاد إلى غرفته في ذلك المساء، ولم يوقد سراجًا. جلس في العتمة، يشعر بقلبه يخفق خلف أضلاعه كعصفورٍ سجين

يضرب رأسه بالقضبان. "لقد رأيتها"، همس لنفسه، وكان صوته غريبًا عليه، كأنه آتٍ من بئر سحيقة. "لقد رأيت الموت والبعث في آن واحد".

بدأت مرحلة "الاحتراق البطيء". لم يعد يهتم بالطعام أو الشراب. صار جلده يلتصق بعظامه، وغارت عيناه في محجريهما، وأصبح شعره فوضى من الرماد. كان يكتب عنها الشعر لا كحبيب، بل كمؤمن يكتب صلواته الأخيرة قبل الإعدام. كان يصف مشيتها التي تهز أركان وجوده، ونظرتها التي تشعره بضآلته. كان يقول في أوراقه

لماذا خلقتِ يا ضحى؟ هل لتعذبي بائسًا مثلي؟ هل تعرفين أنني هنا، خلف هذه الجدران الرطبة، أمزق روحي إربًا لأصنع منها أبياتًا تشبهك؟ إنكِ لا تريننني، ولعل هذا هو عدل السماء؛ فلو نظرتِ إليّ بصدق، لذبتُ كما يذوب الملح في المحيط، ولما بقي مني أثرٌ يذكر."

مرت الشهور، وتحول إعجابه إلى هوسٍ كئيب. كان يقف لساعات طوال تحت المطر أمام أسوار القصر، يرتجف من البرد والحمى، منتظرًا أن يلمح طرف ثوبها من بعيد. كان الحراس يهرقون عليه الشتائم، وأحياناً يدفعونه بعيداً، لكنه لم يكن يشعر بضرباتهم؛ فجسده كان قد تخدر تماماً تحت وطأة الألم الروحي. كان يرى في أحلامه أنها تناديه، تجلس معه في غرفته الحقيرة، تلمس جبهته المحترقة بيديها الباردتين، وتقول له: "يا إبراهام، أنا أيضاً وحيدة في قصري". لكنه عندما يستيقظ، يجد نفسه وحيداً مع رائحة

الورق والعفن، وصوت الفئران التي تقرض بقايا خبزه اليابس.

وصل به الحال إلى مرحلة من الهذيان؛ صار يتحدث إلى الجدران، يسألها عن رأيها في القوافي التي يركبها للأميرة. "هل هذا التشبيه يليق بجفنها؟"، "هل هذه الاستعارة تصف جرحي بما يكفي؟". كان يشعر بأن روحه تتسرب منه، وأن الكتابة لم تعد تكفي لتفريغ هذا الخزان الهائل من الوجد

في إحدى الليالي، بينما كان القمر محجوبًا وراء سحبٍ ثقيلة، شعر إبراهام فجأة بهدوءٍ غريب. لم يكن هدوء السكينة، بل هدوء ما قبل الانتحار، أو ما قبل الانفجار. نظر إلى كومة الأوراق التي تملأ الغرفة، إلى "ديوان الألم" الذي كتبه في سنتين من الصمت. أدرك أنه إذا لم يتحدث، فسيختنق بحروفه. أدرك أن الخوف الذي منعه لسنوات أصبح أصغر من الحزن الذي يقتله الآن.

قال في نفسه بصوتٍ مسموع: "سأذهب إليها. سأفرغ قلبي أمام قدميها، وليكن بعد ذلك ما يكون. الموت على يد حراسها أهون من هذا الموت البطيء في هذه الغرفة اللعينة. سأخبرها أنني أحببتها منذ ذلك اليوم عند باب بوجلود، وأن كل شعرة في جسدي كانت تنادي اسمها في الخفاء. سأكون صادقاً لمرة واحدة، حتى لو كانت هي المرة الأخيرة

لم يكن كلامي معها في تلك الليلة لغةً يفهمها البشر، بل كان عويلاً مرتباً، كأنه نشيج نايٍ كُسر قصبُه منذ قرون. وقفتُ أمامها في تلك الزاوية المعتمة من حديقة القصر، بعد أن

تسللتُ كاللصوص، لا لأسرق ذهباً، بل لأسرق لحظةً من الحقيقة قبل أن يبتلعني العدم.

كانت رائحة الياسمين الليلي تخنقني، وصمت المكان يضغط على أذنيّ حتى سمعتُ دقات قلبي تنبض في حنجرتي. نظرتْ إليّ، ولم تصرخ، لم تستدعِ الحراس؛ ربما لأن وجهي كان يحمل من الشحوب والمأساوية ما كفى ليعلمها أنني لستُ قاتلاً، بل قتيلاً جاء ليبحث عن قاتله.

قلتُ لها، وصوتي يتهدج كأن الحروف جمرٌ في فمي:

«يا مولاتي، لا تنظري إلى ثيابي الرثة، بل انظري إلى الروح التي تآكلت خلفها. أنا إبراهام، الرجل الذي مات ألف مرة وهو يكتب اسمكِ على جدران زقاق العطارين. جئتُ لأقول لكِ إنني أحبكِ، ليس حب الرعية لمليكتها، بل حب الغريق للقشة، وحب المحكوم بالإعدام للأنفاس الأخيرة. لقد قضيتُ سنواتٍ وأنا أقتاتُ على خيالكِ، حتى صار الخيالُ حقيقةً، وصارت الحقيقةُ وهماً لا أطيقه.»

سكتُّ قليلاً، كانت أنفاسي تتسارع، وشعرتُ بتلك "الرعشة " تضرب أطرافي. تابعتُ وأنا أحني رأسي كمن ينتظر ضربة السيف:

«أعلم أنني أدنسُ قدسية مقامكِ بكلماتي، لكنني لم أعد أملك ما أخسره. لقد أحرقتُ مراكبي كلها خلفي، ولم يبقَ لي إلا أن أعترف أو أنفجر. أحبكِ يا ضحى، أحبكِ بمرارة، بكآبة، بيأسٍ لا يعرفه إلا من عاش في القبو مثلي. إنني لا أطلب وصلاً، بل أطلبُ مغفرةً عن هذا الجرم الذي ارتكبه قلبي.»

رفعتْ هي رأسها، وكان ضوء القمر ينعكس في عينيها ليصنع بريقاً غامضاً، يشبه بريق الدموع أو بريق السكاكين. اقتربتْ مني خطوة، فشممتُ فيها رائحة المستحيل؛ رائحةً لا تشبه رائحة القطن ولا رائحة الأرض، بل رائحة النجوم البعيدة التي نراها ولا نلمسها.

قالت بصوتٍ كان ينسال كالسم الممزوج بالعسل:

«أأنت هو صاحب الأوراق التي كانت الرياح تقذف بها أحياناً إلى شرفتي؟ إبراهام.. كنتُ أظنك شبحاً اختلقه خيالي المريض في هذا القصر الموحش. كيف تجرأت؟»

أجبتها، والدموع تحفر أخاديدها على وجهي الشاحب:

«الجرأةُ يا سيدتي هي السلاح الأخير لمن لم يعد لديه مأوى. لقد طردني النوم، ونفتني الأحلام، ولم يبقَ لي سوى أن أكون معكِ، أو لا أكون على الإطلاق. اقتليني الآن إن شئتِ، فالموت بيديكِ هو أسمى أمانيَّ، وهو النهاية الوحيدة التي تليق بهذه التراجيديا التي أسميها حياتي.»

كفي تلك اللحظة، حدث ما لم يكن في الحسبان؛ مدت يدها الباردة ولمست وجنتي. لم تكن لمسة حبٍ عادية، بل كانت صكاً للعبودية الأبدية. قالت: ابقَ معي يا إبراهام.. ابقَ في ظلي، فليالي القصر موحشة في تلك الليلة، لم نتبادل الكثير من الكلمات؛ كان الصمت هو السيد، صمتٌ يشبه سكون المقابر قبل البعث. وقفتُ أمام "ضحى" في ركنٍ قصي من حدائق القصر، حيث لا تصل عيون الحراس، كنتُ أرتجف كطائرٍ بلله المطر، وهي تنظر إليّ بعينين واسعتين كبئرين من الغموض. مدّت يدها، ووضعت أصابعها الباردة على

شفتي، وكأنها تأمر صراخي الداخلي بالهدوء. شعرتُ حينها أنني عُمّدت في دينٍ جديد، دين لا إله فيه سوى هواها. لم أكن أصدق أنني، "إبراهام" الحزين، المسكون بالغبار والوحدة، أتنفس الهواء ذاته الذي يخرج من صدر الأميرة. كانت ليلةً للدهشة المحضة، حيث اكتشفتُ أن بشرتها ليست من طين كبشرتنا، بل من نورٍ صقيل يؤلم العين. نمتُ تلك الليلة على العشب البارد تحت نافذتها، ولم أشعر بالبرد؛ فقد كانت نيران قلبي كافية لتدفئة مدينة كاملة. كنتُ أعلم أنني بدأتُ رحلة السقوط من الحافة، لكنني كنتُ مستعداً للارتطام بالأرض ما دامت هي من دفعتني

في تلك الليلة الثانية، التي امتدت كأنها دهرٌ من السُكرِ الروحي، لم يكن القمر في سماء "فاس" إلا خيطاً شاحباً، نزيلاً غريباً في عتمةٍ حالكة، كأنه جرحٌ قديم في جسد الكون رفض أن يندمل. وقفتُ أمام "ضحى" في تلك الباحة المهجورة من القصر، حيث تنمو الأشجار وتتشابك أغصانها فوق الرؤوس كأصابع الموتى التي تحاول التشبث بالحياة. كانت الرائحة هناك مزيجاً من الطين المبلل وعبق الماضي العفن. طلبت مني، بصوتٍ يحمل رنة الآمر الذي اعتاد الطاعة، وبفضول الأغنياء الذين يبحثون عن "لذة الألم" في حكايات الفقراء، أن أقرأ لها ما جنته يداي في سنوات عزلتي الطويلة.

أخرجتُ من جيب معطفي الممزق رزمة الأوراق التي كانت رفيقتي الوحيدة؛ أوراقٌ مهترئة، اصفرّت حوافها بفعل الزمن، وتفشت فيها بقع الرطوبة والدموع الجافة حتى كادت الحروف تُمحى. بدأتُ أقرأ، وكان صوتي يتهدج، يخرج من

صدري مخنوقاً كأنه نشيج ريحٍ حُبست في زقاقٍ مسدود. لم تكن تلك الكلمات شعراً بالمعنى المألوف، بل كانت "شظايا" من روحي المصلوبة على ورق البردي. قرأتُ لها عن ذلك اليوم المشؤوم عند "باب بوجلود"، حين رأيتُ وجهها لأول مرة فكفرتُ بكل ما قبله، وقرأتُ لها عن الجوع الذي لم يكن يوماً لكسرة خبز، بل لالتفاتةٍ واحدة من عينيها تمنح كينونتي المبعثرة معنىً ولو زائفاً.

كانت هي تنصتُ في صمتٍ مريب، مغمضة العينين كأنها تستنزف طاقتي في كل كلمة أنطقها. وفجأة، في لحظة من الهذيان المشترك، قررت أن تلعب لعبة "الظلال"؛ أشعلت شمعةً وحيدة ووضعتها بيننا على الرخام البارد الذي امتصَّ حرارة جسدي. انعكست ظلالنا على جدار القصر العتيق، فبدا ظلي المنحني، الذي أحدودب من ثقل الخيبات وفقر الدم، وهو يمتزج ويذوب في ظلها الممشوق الذي كان يشبه رمحاً غرزه القدر في خاصرة الليل. قالت لي بهمسٍ جنائزي جعل القشعريرة تسري في نخاعي: "انظر يا إبراهام، في هذا السواد المنعكس على الجدار، نحن متعادلان تماماً.. لا أميرة محرمة هنا، ولا كاتب منبوذ؛ نحن مجرد كائنين من عتمة، يذوبان في بعضهما البعض بعيداً عن ضجيج الرتب والمناصب". كان كلامها مخدراً فتاكاً، أوهم قلبي الغريق بأن هذا السواد المشترك هو وطننا الوحيد الذي لا يستطيع أحد نفيه منه.

ولكي توثق هذا الوهم المر، طلبت مني أن أرسم لها "فاس" بلساني؛ فاس التي لا تعرفها هي من خلف الشرفات الذهبية المنيعة. حدثتها عن رائحة الموت في "دار الدبغ"، عن

صرخات المجانين في المارستانات الذين يظنون أنفسهم أنبياء، وعن وجوه العجائز في "زقاق العطارين" الذين أكل الصمت ملامحهم حتى صاروا يشبهون الحجارة التي يمشون عليها. رأتْ في بؤسي "جمالاً شاعرياً" لم تدرك أنه ثمنُ احتراقي بالكامل.

وعندما شعرتُ أن اللغة قد خذلتني، وأن الكلمات لم تعد تتسع لحجم الخراب الذي بداخلي، استللتُ ريشة الكتابة وبحركةٍ هستيرية جرحتُ إبهامي. غمستُ الريشة في دمي القاني، الذي بدا في ضوء الشمعة أسوداً كالقطران، ثم وقعتُ اسمي "إبراهام" على بياض ثوبها الحريري الفاخر. ضحكتْ ضحكةً باردة، وقعُها يشبه وقع المطر على توابيت خشبية، وقالت: "الدمُ لا يُمحى يا كاتب.. واليوم صرتَ ملكي بعهدٍ لا ينقضه إلا القبر".

انتهت الليلة وهي تضع في كفي المتعرقة زهرة ياسمين ذابلة، كانت قد سقطت من غصنها لتوها. أخبرتني أنها تشبه أحلامنا المجهضة؛ تزهر في عتمة السر بين الجدران، وتموت مسحوقةً تحت أقدام الحقيقة القاسية مع أول خيط من خيوط الفجر. غادرتُها وأنا أترنح، أشعر أنني لم أعد أملك ذرةً من نفسي؛ لقد بعتُ كياني مقابل "ظلٍ" على جدار وقليل من الدماء على ثوب أميرة، مدركاً في أعماقي أن الفجر القادم لن يحمل لي إلا رماد هذا اللقاء، وأنني بدأتُ بالفعل في حفر قبري بيديَّ

انقضت تلك الأيام كأنها انزلاقٌ بطيء في بئرٍ لا قاع له، حيث لم يعد الزمان يُقاس بالساعات، بل بمقدار ما يتآكل من

روحي في حضرة "ضحى". كانت تلك الفترة عبارة عن مخاضٍ عسير من الوجد الذي استحال تدريجياً إلى نوع من العبودية المختارة، حيث تلاشت حدود الذات بيننا، لا لنتحد في الحب، بل لأذوب أنا في سطوتها كقطعة سكر في محيط من الأجاج. صرتُ أمشي في أروقة القصر كأنني طيفٌ غريب أضله الطريق، أتحاشى النظر في مرايا القصر المرصعة بالذهب لأنني كنتُ أخشى ألا أرى انعكاساً لوجهي، وكأن ملامحي قد سُرقت لتُضاف إلى ملامحها هي.

لقد بدأتُ أشعر بحبالٍ غير مرئية تلتفُّ حول عنقي كلما اقتربتُ من مخدعها؛ لم يكن ذلك الحب الذي تغنى به الشعراء، بل كان "قيداً" صاغه صانع أغلالٍ بارع. كانت نظراتها تخترقني، تسألني بصمتٍ مستفز عن جذوري في "زقاق العطارين"، وكأنها تريد أن تقتلع كل ذكرى لي خارج أسوار سجنها الجميل. كانت تستمتع برؤيتي وأنا أختنق بكلماتي، وتتلذذ بحالة الهذيان التي أصابتني، حيث صار شعري يخرج منها محملاً برائحة الموت والرماد، ولم يعد للغزل مكان في قصائدي، بل حل محله الرثاء لذاتٍ كانت يوماً حرة.

كانت ملامحها تزداد برودة كلما ازددتُ أنا اشتعالاً، وكانت تهمس في أذني بكلماتٍ تشبه الطلاسم، تخبرني فيها أن الهروب مني إليها هو هروبٌ من الحياة إلى حفرةٍ أعمق. وفي تلك اللحظات من الغرق الوجداني، بدأتُ أشعر بوطأةٍ غريبة تجتاح جسدي، كأن أطرافي صارت من رصاص، وصار التنفس في حضرها يتطلب مجهوداً خرافياً. كنتُ أرى في عينيها انعكاساً لنهايتي المحتومة، ولم تكن تلك النهاية

غرقاً في عناق، بل كانت اضمحلالاً كاملاً تحت وطأة حضورها الطاغي.

وفجأة، وسط هذا الصمت الجنائزي الذي غلف علاقتنا، بدأ الهواء يتغير؛ لم يعد يحمل رائحة الياسمين، بل صار مشبعاً برائحة الكبريت والحريق القادم من بعيد. كانت أصواتٌ مبهمة تصل إلى مسامعي في أنصاف الليالي، أصواتٌ لا تنتمي للبشر، بل لكياناتٍ عابثة بدأت تتحرك في أقاصي المملكة. كان التمرد يطبخ على نارٍ هادئة في عتمة الصحاري، حيث السحرة ينفثون سمومهم في ريح الجنوب، يجهزون لإحراق كل ما هو أخضر وجميل. شعرتُ حينها أن قدري لم يكن لينتهي بين ذراعي ضحى، بل كان يجرني نحو هاويةٍ أخرى، هاويةٍ تتطلب مني أن أترك هذا السجن الدافئ لأواجه ظلاماً لا يعرف الرحمة. كان الرحيل يطرق أبواب روحي بعنف، ولم يكن رحيلاً لاختيار، بل كان قسراً تفرضه النجوم التي بدأت تتساقط واحدة تلو الأخرى في سماء أيامي الأخيرة معها

لم يكن الزمن في حضرة الأميرة "ضحى" يسير كزمن البشر العاديين، بل كان زمناً دائرياً، يبتلع نفسه في كل ليلة. كنتُ أشعر أنني في رحلة داخل جسدٍ ميت، أحاول أن أستخرج منه دفئاً لم يعد موجوداً. كانت الليالي التي تلت الليلة العاشرة هي ليالي "التفكك الروحي". صرتُ أصل إلى القصر وأنا منهك، ليس بسبب السير، بل بسبب الثقل الذي يحمله قلبي، ثقل الحقيقة التي بدأت تبرز مخالبها: أنني لستُ سوى دمية متحركة في مسرحية من صنع خيالها المريض.

في إحدى تلك الليالي، التي ضاع رقمها في زحام الوجع، جعلتني ضحى أجلس على الأرض الباردة تحت قدميها، وطلبت مني أن أحكي لها عن "أمي". لم أكن قد تحدثتُ عن أمي لأحد؛ تلك المرأة التي ماتت وهي تحاول غسل ثيابي الممزقة في مياه النهر الباردة. بدأتُ أحكي، وصوتي يشبه احتكاك الصخور في قاع بئر جافة. حكيتُ لها كيف كانت أمي تضع يدها المتشققة على جبهتي وتدعو لي بأن "أجد مكاني في العالم". وعندما نظرتُ إلى ضحى، رأيتُ في عينيها لمعةً لم تكن دمعة شفقة، بل كانت لمعة "انتصار". لقد عرفتْ نقطة ضعفي الأخيرة، وعرفتْ أنها الآن تملك كل ذرة في تاريخي، حتى تلك الذكريات التي كنتُ أخبئها عن نفسي.

قالت لي وهي تمرر أصابعها الطويلة فوق عينيّ، كأنها تحاول اقتلاعهما بلطف: "إبراهام.. أنت الآن طفلي، وعبدي، وإلهي الحزين. لا تخرج من هذا القصر، فالعالم في الخارج لا يملك ياسمينتي، ولا يملك هذا البرد الجميل الذي أمنحه لك". في تلك اللحظة، شعرتُ برغبةٍ عارمة في الصراخ، في تحطيم المزهريات الصينية الغالية، في أن أشتمها وأشتم هذا القدر الذي جعلني أحب "جلادي". لكنني لم أفعل. بقيتُ صامتاً، كالحجارة التي تُبنى بها أسوار فاس، صمتاً يغلي بالبراكين.

تحولت علاقتنا في الليالي العشرين التالية إلى نوع من "الطقوس الوثنية". كانت تجبرني على كتابة قصائد "انتحارية"، قصائد أرثي فيها نفسي وأنا لا أزال حياً. صرتُ أكتب عن إبراهام الذي مات في زقاق العطارين، وعن إبراهام الذي يطوف الآن كشبح في القصر. كانت تأخذ

الأوراق، وتقربها من لهب الشمعة حتى تحترق أطرافها، ثم تشم رائحة الحبر المحترق وتقول: "هذه هي رائحة روحك يا إبراهام.. إنها لذيذة". كنتُ أراقب الورق وهو يتحول إلى رماد، وأشعر أن أجزاءً من عقلي تتفحم معه. لم أعد كائناً مفكراً، صرتُ كائناً "شاعراً" بالمعنى المرضي للكلمة، كائناً لا يعيش إلا إذا تألم.

بدأتُ ألاحظ تغيرات غريبة في القصر. الخدم الذين كانوا يتجاهلونني صاروا ينظرون إليّ بنظرات ملؤها الرعب، كأنهم يرون علامة الموت مطبوعة على جبيني. الممرات الطويلة بدأت تضيق، والجدران صارت تنضح بماءٍ بارد يشبه عرق المحمومين. وفي إحدى الليالي، بينما كنتُ أغادر مخدعها في الهزيع الأخير من الليل، رأيتُ ظلاً طويلاً يرتدي برنساً أسود يختفي خلف إحدى السواري. لم يكن حارساً، كان شيئاً آخر.. شيئاً تفوح منه رائحة الكبريت والكتب القديمة.

بدأ الحديث في المدينة ينتشر عن "تمرد السحرة". قيل إنهم في الجنوب، عند تخوم الصحراء، يجمعون عظام الموتى ويصنعون منها جيوشاً لا تقهر. وقيل إنهم استطاعوا حبس المطر، وتحويل مياه الآبار إلى دم. كنتُ أسمع هذه الأخبار وأنا في حالة من الذهول، لم أكن أهتم بمصير المملكة، كنتُ فقط أخشى أن يفسد هذا التمرد عزلتي مع ضحى. لكن ضحى نفسها بدأت تتغير؛ صارت تصاب بنوبات من الصرع الخفيف، تتحدث بلغات غير مفهومة، وتقول إن "النار قادمة لتأكل الحرير".

في الليلة الخامسة والثلاثين، حدث شيءٌ زلزل كينونتي. كانت ضحى نائمة، وكنتُ جالساً بجانبها أراقب تنفسها المضطرب. فجأة، فتحت عينيها، ولم تكن عينيها اللتين أعرفهما؛ كانتا بلون النحاس المحمى. أمسكت بيدي بقوة كادت تكسر عظامي، وقالت بصوتٍ ليس صوتها: "إبراهام.. ارحل. السحرة لا يريدون العرش، إنهم يريدون "الكلمات". إنهم يريدونك أنت". ثم سقطت في غيبوبة عميقة لم تستيقظ منها إلا في الصباح، وهي لا تذكر شيئاً مما قيل.

عشتُ الليالي العشر الأخيرة في جحيم من الشك. هل ضحى مجرد ضحية؟ أم أنها جزء من هذا السحر الأسود؟ صرتُ أنظر إليها وأرى فيها "الوحش" و"الملاك" في آن واحد. كنتُ أقبل يديها وأنا أشعر بقرفٍ عميق من نفسي، وبحبٍ أعمق يمنعني من الهرب. صرتُ أرى في أحلامي فتاة القطن.. فتاة لم أكن قد قابلتها بعد، لكنها كانت تظهر لي في المنام، تحصد القطن وسط حقل من الدماء، وتنظر إليّ بعينين هادئتين كالموت.

وصلنا إلى الليلة الخامسة والأربعين. كانت السماء حمراء، ليس بلون الشفق، بل بلون الحريق. جاء المنادي من القصر ليعلن أن الملك قد اختار "إبراهام الكاتب" ليكون مبعوثاً سرياً إلى الجنوب، ليس لشجاعته، بل لأن كلماته وقصائده هي الوحيدة القادرة على فك شفرات السحرة، ولأن روحه "المحترقة" أصلاً لم تعد تخشى النار.

وقفتُ أمام ضحى للوداع الأخير. كانت باردة كتمثال من الرخام. لم تبكِ، لم تتشبث بقميصي. نظرتْ إليّ وقالت جملة

واحدة حطمت ما تبقى من قلبي: "اذهب يا إبراهام.. فربما في غيابك أجد شخصاً يحبني بألمٍ أقل، وبحياةٍ أكثر".

خرجتُ من أسوار القصر، ولم ألتفت خلفي. كنتُ أحمل في جرابي محبرة، وريشة، وخنجراً، وقلباً لم يعد يصلح لشيء سوى أن يُدفن في رمال الجنوب

كانت الرحلة إلى الجنوب رحلةً في دهاليز العدم، حيث لم تكن الرمال مجرد ذرات من الصخر، بل كانت رماداً لأحلامٍ احترقت قبل أن تُولد. كان "إبراهام" يقطع الفيافي، وكل خطوة يخطوها بغله الهزيل كانت تبعده عن رائحة الياسمين المسمومة في قصر "ضحى"، لتقذفه في أتون ريح "السموم" التي كانت تنهش جلده الشاحب. لم تكن المهمة سياسية بقدر ما كانت مواجهةً مع "الظلال" التي سكنت روحه.

في حضرة "أزرو": سدنة الفراغ

عندما وصل إبراهام إلى "عرق الرماد"، كانت السماء قد اتخذت لون الكبد المريض. هناك، وجد السحرة المتمردين؛ لم يكونوا جيشاً مدججاً بالسلاح، بل كانوا كائناتٍ هلامية تسكن خياماً منسوجة من شعر الخيبة. كان زعيمهم "أزرو" يجلس فوق تلة من الملح، عيناه كانتا مجرد ثقبين يطلان على هاوية سحيقة.

عندما اقترب إبراهام، لم يرفع أزرو سيفه، بل رفع صوته الذي كان يشبه حفيف الأفاعي فوق ورقٍ جاف

"أهذا هو الكاتب الذي أرسله العرش ليبطل طلاسمنا؟ أهذا هو الرجل الذي قضى 45 ليلة يظن أنه يلامس النور، بينما

كان ينغمس في وحل الغرور؟ يا إبراهام، أنت لا تحمل سلاحاً، أنت تحمل جثة قلبك في حقيبتك، وتظن أنها ستشفع لك عندنا."

كانت هذه المواجهة الأولى ضربةً في صميم كيان إبراهام. شعر بالخزي، خزي العبد الذي يواجه حقيقته في مرآةٍ صادقة. حاول أن يتكلم، لكن جفافاً غريباً أصاب حنجرته، وكأن رمال الصحراء قد تسللت إلى أحباله الصوتية. سحب دوايته وريشته، تلك الريشة التي شبعت من دمه ودموعه، وبدأ يكتب في الهواء كلماتٍ أراد بها أن يصد هذا الهجوم الوجداني.

الحرب الفلسفية: تفتت المعنى

بدأ السحرة طقسهم؛ لم يلقوا عليه تعاويذ النار، بل ألقوا عليه تعاويذ "الشك". أحاطوا به في دائرةٍ وبدأوا ينشدون بلغةٍ قديمة، لغةٍ تجرد الأشياء من أسمائها. كان إبراهام يشعر أن كلمة "حب" بدأت تفقد معناها في عقله، وأن صورة "ضحى" بدأت تتشوه، لتصبح مجرد بقعة حبرٍ سوداء على لوحةٍ بيضاء.

قال له أزرو وهو يقترب منه، ورائحة الكبريت تنبعث من أنفاسه

"لماذا تكتب يا إبراهام؟ ألتخلد وجعك؟ أم لتكذب على نفسك بأنك موجود؟ إن القصائد التي كتبتها لضحى ليست إلا مسامير في تابوتك. نحن السحرة لا نبحث عن الملك، نحن نبحث عن "الحقيقة العارية" التي تسترونها بالكلمات المنمقة. العالم يا إبراهام هو هذا الرمل، لا بداية له ولا

نهاية، وكل ما عداه هو وهمٌ صنعته عقولكم المريضة بالجمال."

في تلك اللحظة، شعر إبراهام بانهيارٍ تام. سقط على ركبتيه، وشعر بأن "فاس" بعيدة جداً، وأن الليالي الـ 45 كانت مجرد خرافة حكاها لنفسه في لحظة جنون. لكن، وسط هذا الظلام، انبعث من داخله نوعٌ آخر من القوة؛ قوة "اليأس المطلق". لقد أدرك أن كونه محطماً هو سلاحه الوحيد.

صرخ في وجه أزرو، وصوته يشق صمت الصحراء الجنائزي

"إذا كان العالم رملاً، فإني سأكتب فوق الرمل بدمي! وإذا كان الحب وهماً، فإني سأعيش داخل هذا الوهم حتى يحرقني! إن سحرك لا يخيفني، لأنني رأيت في عيني ضحى ما هو أبشع من الجحيم الذي تعدني به. أنا كاتبُ الفجيعة، ولن تبطل كلماتي بتمتماتك!"

ملحمة الكلمات المحترقة

بدأت المواجهة الكبرى. أخرج السحرة طلاسمهم المكتوبة على جلود الحيوانات الضالة، وبدأوا يلقونها في الهواء، فتتحول إلى طيورٍ من نار تهاجم إبراهام. لكنه، وبحركةٍ هستيرية، بدأ يمزق أوراقه القديمة، تلك التي كتبها في زقاق العطارين، ويلقيها في وجه الريح. كانت الكلمات تخرج من الورق وتلتحم بطيور النار، فتطفئها ببرودة الحزن الكامن فيها.

كانت معركة بين "سحر العدم" و"سحر الوجود المتألم". كان إبراهام ينزف من أنفه وأذنيه، لكنه لم يتوقف عن

الكتابة بأصابعه فوق الرمال. كتب عن الجوع، عن الوحدة، عن رائحة الخبز في أزقة فاس، عن ملامح فتاة القطن التي رآها في الحلم ولم يعرفها بعد. كانت هذه الكلمات الواقعية جداً، والمنغرسة في طين الأرض، هي التي أضعفت السحرة. هم لا يملكون حقيقة الأرض، بل يملكون زيف الغيب.

تراجع السحرة، وبدأ "أزرو" يتقلص، كأن الهواء يخرج من جسده. قال وهو يتلاشى كالدخان:

"لقد هزمتنا يا إبراهام.. ليس لأنك أقوى، بل لأنك أكثر خراباً منا. عُد إلى مملكتك، عُد إلى أميرتك، لترى أنَّ الانتصار الذي حققته هنا هو الهزيمة الكبرى التي تنتظرك هناك. لقد أبطلت سحرنا، لكنك لم تبطل سحر "الخيانة" الذي ينسج خيوطه حول عنقك الآن."

رحلة العودة: صمت القوافل

انتهى التمرد، وعاد الهدوء المشبوه إلى الجنوب. امتطى إبراهام بغله، وكان يشعر ببرودةٍ غريبة تسكن عظامه، برودةٍ لا تذيبها شمس الصحراء. كانت رحلة العودة التي استغرقت أسبوعين أطول من عمره كله. كان يسير في القفار، وكل بئرٍ يمر بها كانت تبدو له كأنها قبرٌ مفتوح.

كان يرى في الأفق سراباً يشبه قصور فاس، لكنه كان يعلم أن ما ينتظره ليس حضناً دافئاً، بل صقيعاً وجدانياً لم يحسب له حساباً. كانت كلمات أزرو الأخيرة تطن في أذنيه كزنبورٍ مسموم. "سحر الخيانة". لم يكن يريد أن يصدق، لكن قلبه، ذلك الرادار الحساس للألم، كان يخبره بأن شيئاً ما قد انكسر

في غيابه، وأن العهد الذي وُقع بالدم في الليلة الثانية قد غسلته أمطار الغدر.

كان ينام في العراء، ويلتحف سماءً مرصعة بنجومٍ تبدو كعيونٍ شامتة. وفي تلك الليالي، عادت له صورة "فتاة القطن". رآها وهي تجمع القطن الأبيض، وكان بياض القطن يتلوث بقطرات دمٍ تسقط من السماء. استيقظ وهو يصرخ باسم "ضحى"، لكن الصدى كان يعود إليه محملاً بصوت "أزرو" الساخر.

عندما بدأت أسوار مدينة فاس تلوح في الأفق، لم يشعر إبراهام بالفرح. شعر برغبةٍ في العودة إلى الصحراء، في أن يدفن نفسه في "عرق الرماد" ويصبح ذرة رملٍ لا تشعر ولا تكتب. لكن القدر كان يجره جراً نحو قدره المحتوم. دلف من "باب بوجلود" وهو يحمل غبار الجنوب فوق كتفيه، وعيناه غائرتان كأنما رأت الموت وعادت منه.

كانت المدينة صامتة بشكلٍ مريب، والناس ينظرون إليه بنظراتٍ ملؤها الإشفاق والريبة. لم يذهب إلى بيته في زقاق العطارين، بل توجه مباشرةً نحو القصر

دخل إبراهام أسوار القصر الملكي وكأنَّه يدخل ضريحه الخاص؛ كان الغبارُ الذي يكسو ثيابه ليس مجرد رملٍ من الجنوب، بل كان رماد سنينه التي احترقت في خدمة وهمٍ يدعى الحب. سار في الممرات الرخامية التي ألفها، لكنَّها بدت له هذه المرة باردة، غريبة، وكأنَّ الجدران قد فقدت ذاكرتها ولم تعد تعرف وقع خطواته. لم يوقفه الحراس، بل

تنحوا جانباً بنظراتٍ تحمل مزيجاً من الشفقة والوجوم، وكأنهم يفسحون الطريق لميتٍ يسير نحو حتفه.

عندما وصل إلى الجناح الخاص بالأميرة ضحى، لم يجد الحرس الشخصي، ولا الوصيفات، ولا حتى رائحة البخور التي كانت تملأ المكان. كان السكونُ هناك ثقيلاً، يضغط على الصدر كأنه جبل. فتح الباب ببطء، فصرَّت المفصلات صرخةً مزقت صمت المكان. وهناك، في قلب الغرفة التي شهدت لياليهم الـ 45، رأى ما جعله يتمنى لو أنَّ سحرة الجنوب قد سلبوا منه بصره قبل عودته.

كانت ضحى ملقاة على أريكتها الحريرية، لكنها لم تكن ضحى التي غادرها. كانت ملامحها تشعُّ بنوعٍ من الغياب المهين؛ كانت تبدو مستسلمة، ليس للحزن، بل "لغيره". رأى في زاوية الغرفة ثياباً لا تخصه، وكأساً مكسورة، ورسائل نثرت على الأرض لم تكن بخطه ولا بأسلوبه. لكنَّ الأبشع من ذلك كله، كان وجهها الذي بدا ناضراً بشكلٍ جارح، وكأنَّ رحيله لم يترك في قلبها خدشاً واحداً، بل كان بمثابة إزالة حملٍ ثقيل عن كاهلها.

وقفت ضحى ببرودٍ قتل ما تبقى من روحه، لم تهرع إليه، لم تسأله عن جراحه، ولم تمسح غبار السفر عن جبينه. نظرت إليه بعينين زجاجيتين، عينين سلبتا منه حتى حقَّه في "الأحلام"؛ إذ قالت بصوتٍ هادئ كوقع المقصلة

لقد عدتَ يا إبراهام.. لكنك عدتَ إلى مكانٍ لم يعد موجوداً. الليالي التي قضيتها معك كانت مجرد سطور في كتابٍ قديم

قررْتُ إغلاقه وإحراقه. لقد وجدتُ في غيابك حياةً لا تتنفس الحزن، وقلباً لا يكتب القصائد، بل يعيش الواقع. ارحل يا إبراهام، فوجودك هنا يذكرني بمرضٍ كنتُ أظنني لن أشفى منه

كانت الكلماتُ تنزلُ على قلبه كالمساميرِ المحماة التي لا تكتفي بخرق الجلد، بل تغوصُ لِتُصهر الروح وتتركها هباءً منثوراً. شعر إبراهام بالدوار، وبأن الأرض تحت قدميه لم تعد تلك الأرض الصلبة التي تحمل البشر، بل غدت زئبقاً يبتلعه ببطءٍ مهين. كل بيت شعرٍ خطّه لها بدمه، كل سهرٍ قضاه في زقاق العطارين يغزلُ من خيوط القمر ثياباً لجمالها، صار في تلك اللحظة خنجراً يرتدُّ إلى صدره بطعنةٍ مسمومة. كيف يمكن للذاكرة أن تكون بهذا الجحود؟ وكيف للكلمات التي شيدت جسوراً من النور لليالٍ طوال أن تتحول إلى فأسٍ يهدم كل أثرٍ لوجوده؟

لم يقل كلمة واحدة؛ فماذا عساه يقول رجلٌ اكتشف أنَّ الوطن الذي حارب لأجله، والحدود التي حمى طهرها من دنس السحرة، والعرش الذي صانه بكلماته وروحه، قد باعه لعدوٍ خفيٍّ في ليلةٍ وضحاها؟ كان الصمتُ الذي غلّفه في تلك اللحظة أثقل من صراخ الموتى، صمتاً "دوستويفسكياً" يغلي في أعماقه كبركانٍ مكتوم. نظر إلى "ضحى" للمرة الأخيرة، فلم يرَ فيها الحبيبة التي رسمها في خياله كقديسة، بل رأى فيها تجسيداً للفناء البارد، رأى امرأةً سلبته حتى أثمن ما يملك الكاتب: "الحلم". لقد حرمته حتى من أن ينام ليراها، إذ جعلت من طيفها عدواً يسكن يقظته ليؤرقه، وطردته من

جنة ذكرياتها كأنَّه ذنبٌ تابَت منه، أو مرضٌ معدٍ استلزم الشفاء منه بتر جزءٍ من حياتها.

أحسَّ بأنَّ مدينة "فاس" العتيقة، بأزقتها التي حفظت أنينه، وجدرانها التي امتصت عبراته، تضيق عليه فجأة؛ صارت الشوارعُ ممراتٍ خانقة، والهواءُ صار عبارة عن رمادٍ يملأ رئتيه. أما مياه نهر "سبو" التي كانت تتدفق في قصائده كدماءِ الحياة وتلهمه أعذب القوافي، فقد استحالت في عينيه دواماتٍ من القطران الأسود تطالبه بالغرق، تناديه ليرتمي في أحضانها لعلَّ برودة الماء تطفئ الحريق الذي أشعلته "ضحى" في نخاعه. كان يشعر بأنَّ كيانه يتفتت، وبأنَّ إبراهام الكاتب قد مات هناك، في مخدع الأميرة، ولم يتبقَّ منه سوى هيكلٍ يسكنه شبحُ رجل.

خرج من القصر وهو يترنح، يجرُّ خيبته كجثةٍ ثقيلة لا تجد من يدفنها. كانت الشمس تغربُ خلف المآذن، لكنها في عينيه كانت تنطفئ للأبد. لم تكن فاس هي التي تغيرت، بل كان هو الذي فقد البصر الروحي؛ صار يرى الجمال قبحاً، والوفاء أسطورةً بائدة. مشى في الدروب لا يعرف وجهة، هارباً من نظرات العابرين التي خُيل إليه أنها تقرأ خبر هزيمته على جبينه. وبينما كان يقترب من أطراف المدينة، حيث تسكن الريحُ الوحشة، كانت فكرةٌ واحدة تسيطر عليه: أنَّ الحبَّ هو "الخطيئة الكبرى" التي لا تُغفر، وأنَّ الكلمات هي "الفخ" الذي نصبه لنفسه

هناك، وسط هجير اليأس وصقيع الخيانة، قرر أن يدفن إبراهام الكاتب تحت طبقاتٍ من الصمت المطبق. قرر أنَّ الحل الوحيد للنجاة من نار الذاكرة هو الانصهار في تراب الأرض، أن يتخلى عن القلم والريشة ليمسك بالمحراث، أن يهرب من ملمس الحرير الذي خانه إلى خشونة القطن التي لا تعد بشيء. سار نحو المجهول، يحدوه حقدٌ دفين على كل ما هو شاعري، ورغبةٌ هستيرية في النسيان، متجهاً نحو تلك الحقول البيضاء

انقذفت الروحُ من بريق القصور إلى عتمة الأرض، ومن ترف الكلمات إلى صمت الطين. اعتزل إبراهام العالم في تلك الحقول النائية على أطراف المملكة، حيث يمتد بياض القطن ككفنٍ أبدي يغطي وجه الثرى. هناك، قرر أن يشنق "إبراهام الكاتب" بيده، فدفن محبرته في حفرةٍ سحيقة، وكسر ريشته التي طالما نزفت شعراً، واستبدلها بمحراثٍ يجرُّه جسدٌ خاوٍ، وروحٌ تئنُّ تحت وطأة الذكرى.

تحول الجسد: من رقة الورق إلى قسوة الصخر

كانت الأيام تمرُّ ثقيلة كأنها رصاصٌ يصبُّ في أذنيه. يداه اللتان كانتا لا تلمسان إلا الحرير وورق البردي الفاخر، واللتان كانتا ترتجفان رقةً وهما تصفان جفن "ضحى"، بدأتا تتحولان إلى أداتين من اللحم الصلب والجلد المتشقق. نمت على كفيه طبقات من الثفن، وغارت المسام تحت غبار الأرض، وصارت الأصابع التي كانت تعزف القوافي كأغصانٍ يابسة لا تعرف سوى لغة الاقتلاع والزرع. كان يتلذذ بالألم الجسدي؛ كان يغرس أصابعه في التربة بقوة، كأنه يحاول

الوصول إلى مركز الأرض ليدفن رأسه هناك بعيداً عن ضجيج الذاكرة.

كل قطرة عرق تسقط من جبينه كانت في نظره تطهيراً من حبر القصائد المسمومة. كان يصحو مع الفجر، قبل أن تشرق الشمس، ليتجنب رؤية "الضحى" التي تذكره باسمها. كان يعمل حتى تنهكه القوى، فيسقط في المساء كجثةٍ هامدة على فراشٍ من القش، لا يزوره في منامه سوى سوادٍ مطبق، فقد كان يخشى الأحلام كما يخشى الطاعون، لأن الأحلام كانت الملاذ الأخير لضحى لتتسلل إليه.

فتاة القطن: الصمت الذي يراقب

وسط هذا الضياع، كانت هناك "فتاة القطن". امرأةٌ بدت كأنها نبتت من هذه الأرض؛ صامتة، رصينة، لا تملك من ملامح الجمال ما يثير الفتنة، لكنها تملك حضوراً هادئاً كحضور الموت. تزوجها إبراهام في لحظة يأسٍ هستيرية، ليس رغبةً فيها، بل نكايةً في الأميرة، وبحثاً عن امرأة "لا تقرأ"، امرأة لن تجد في عينيه قصيدة، ولن تطالبه بنثر الوجد.

لكن تلك الفتاة لم تكن كما ظن. طوال سنتين، كانت تراقبه بصمتٍ مريب يثير القشعريرة في النخاع. كانت تقف في طرف الحقل، يداها غارقتان في ألياف القطن الأبيض، وعيناها مثبتتان عليه بنظرةٍ غامضة، نظرةٍ لا تحمل حباً ولا كراهية، بل تحمل "انتظاراً". كان إبراهام يشعر بثقل نظراتها وهو يحرث، كأنها تحصي عليه أنفاسه، وكأنها

تدرك أنَّ هذا الرجل ليس فلاحاً، بل هو بركانٌ خامد مغطى بالرماد.

كانت في البيت لا تتحدث إلا نادراً. تقدم له الطعام بآليةٍ مفرطة، وتجلس قبالته تراقب ملامحه وهي تتآكل بفعل الزمن والندم. أحياناً، كان يستيقظ في منتصف الليل ليجدها واقفة عند رأس سريره، تحدق في وجهه بجمودٍ مرعب، وعندما يسألها عما تفعل، تكتفي بهمسٍ بارد: "كنتُ أتأكد أنك لا تزال تتنفس". لم يكن يعلم أن هذا الحرص لم يكن حباً، بل كان حرص السجان على سجينٍ لم يحن موعد إعدامه بعد.

كانت السنتان في حقول القطن بمثابة انتحارٍ بطيء وممنهج لكل ما هو إنساني في "إبراهام". لم يكن يسكن بيتاً، بل كان يسكن صمتاً مطبقاً، يمتد من شروق الشمس حتى مغيبها. تحولت حياته إلى طقسٍ يومي من التعذيب الذاتي؛ فكان يستيقظ في الفجر، يخرج إلى الحقل وجسده مثقلٌ ببقايا أحلامٍ مشوهة، ويبدأ في غرس مِحراثه في تربةٍ قاسية، كأنه يحرث في لحمه الخاص.

اليدان والتراب: ملحمة المسخ الجسدي

لقد فقدت يداه كل ذاكرةٍ للنعومة. الأصابع التي كانت تداعب ريشة الكتابة بخفةٍ ومراوغة، أصبحت غليظة، خشنة، ومغطاة بشقوقٍ لا تندمل، تسكنها ذرات التراب الأسود كأنها أوشامٌ من الشقاء. لم تعد يداه تعرفان ملمس الورق؛ فلو لمس ورقةً الآن لتمزقت بين خشونة أصابعه. كان ينظر إلى كفيه أحياناً تحت ضوء القمر ويشعر بالغربة تجاههما،

كأنهما يدا وحشٍ استوطن جسده. كان هذا التحول يسعده في عمق بؤسه، فكلما زادت قسوة جسده، خُيل إليه أن قلبه يتقشر ويتحول إلى حجر، وأنه أخيراً يبتعد عن ذلك "إبراهام" الرقيق الذي حطمته نظرة أميرة.

كان يعمل حتى تنهار مفاصله، حتى يشعر بأن رئتيه قد امتلأتا بغبار القطن الأبيض. كان القطن يحيط به كبحرٍ لا ينتهي، بياضه جارح، يذكره بالأكفان وبالليالي البيضاء التي قضاها في القصر، لكنه بياضٌ صامت، بياضٌ لا يتكلم ولا يكتب الشعر. كان يغرق فيه هرباً من ألوان الذاكرة الزاهية.

فتاة القطن: الشبح القابع في زاوية الدار

أما زوجته، "فتاة القطن"، فقد كانت لغزاً منسوجاً من الرماد. لم تكن امرأة بالمعنى المعتاد، بل كانت "حضوراً" ثقيلاً يراقب انطفاءه. كانت تتحرك في البيت بخفةٍ لا تناسب فتاة ريفية، كأن قدميها لا تلمسان الأرض. طوال سنتين، لم يسمع منها جملةً كاملة تعبر عن عاطفة؛ كانت كلماتها مقتضبة، حادة، وباردة كشفرة الحلاقة.

كانت تراقبه بصمتٍ مرعب. عندما يجلس على المائدة، كانت تكتفي بوضع الطعام أمامه، ثم تجلس في الزاوية المعتمة من الغرفة، وعيناها مثبتتان عليه بنظرةٍ لا رمشٍ فيها. كانت تلك النظرة تلاحقه حتى في منامه. لم تكن زوجةً تشاركه الفراش، بل كانت "سجاناً" يشاركه القبر. كان يشعر أحياناً أنها ليست من طين، بل هي تجسيدٌ لكل الخيبات التي عاشها. كانت تغيب عن البيت لأيام، تذهب إلى جهة الشمال،

نحو "تطوان"، وتعود وقد ازداد غموضها حدة، وازداد صمتها ثقلاً.

في إحدى الليالي، استيقظ إبراهام على صوت صقيلٍ خفيض، صوت احتكاك معدنٍ بمعدن. نظر في العتمة فرآها جالسة عند النافذة، تمسح شيئاً طويلاً بقطعة من الحرير الأبيض. عندما سألها عما تفعل، التفتت إليه ببطء، وكان ضوء القمر المنعكس على وجهها يمنحها ملامح تمثالٍ من الرخام، وقالت ببرود: "أنا أنظف أدوات الحصاد يا إبراهام.. فالحصاد الكبير قد اقترب". لم يفهم حينها أن "الحصاد" الذي تعنيه ليس حصاد القطن، بل هو حصاد الأرواح التي طال انتظار قطفها.

السنتان: الهروب المستحيل

مرت السنتان وإبراهام يظن أنه نجح في الهروب. كان يظن أن "ضحى" قد ماتت في قلبه، وأن أخبار القصر قد غُلقت دونها الأبواب. صار يتحدث لغة الفلاحين، ويلبس أسمالهم، ويأكل طعامهم الخشن. لكنه في أعماقه، كان يدرك أنَّ هذا الصمت ليس إلا استراحةً بين عاصفتين. كان القطن الأبيض الذي يحيط بالبيت يبدو له في الليالي المقمرة وكأنه جيشٌ من الأشباح ينتظر إشارة البدء.

كانت "فتاة القطن" هي العروة التي تربطه بمصيره المحتوم. كانت تدرس كل حركة يقوم بها، كل تنهيدة يطلقها في الليل، وكل اسم يهمس به وهو غارق في حمى الذكريات. كانت تجمع "معلوماتها" عنه كما تجمع القطن، وتخزنها في صدرها بانتظار اللحظة التي سيطرق فيها

الموت باب الأميرة، لتكشف له أنها لم تكن يوماً زوجة، بل كانت "الخنجر" الذي زرعه القدر في خاصرته ليتمم مأساته التي بدأت بكلمة شعر وانتهت بقطرة دم.

كانت تلك الليلةُ في ريف المغرب تشبهُ في صمتها صمتَ الجنائزِ التي لم يُعلن عنها بعد. السماءُ فوق الحقول كانت غريبةً، لم تكن زرقاء ولا سوداء، بل كانت بلون الرصاص المصهور، ثقيلةً كأنها توشكُ على الانطباق على هذه الأرض المنسية. الرياحُ لم تكن تهبُّ، بل كانت "تزحفُ" بين سيقان القطن الأبيض، محدثةً صوتاً يشبه حفيف الثياب الحريرية على بلاط القصر، وهو الصوتُ الذي كان إبراهام يحاول طرده من مخيلته طوال سنتين.

كان إبراهام جالساً في زاوية الكوخ، يراقبُ يدي زوجته، "فتاة القطن"، وهي تقوم بعجن الخبز. كان ضوءُ القنديل الشحيح يرقصُ على وجهها، فيرسمُ ظلالاً حادةً لعظام وجنتيها. كانت يداها، اللتان غاصتا في الدقيق الأبيض، تتحركان بإيقاعٍ رتيب، إيقاعٍ لا يخطئ، ولا يتردد، وكأنها لا تعجنُ خبزاً، بلً كانت تطويً قدراً. كان إبراهام ينظر إليها ويشعرُ ببرودةٍ تسري في أوصاله؛ سنتان مرتا وهو ينام بجانب هذا الصمت، ولم يعرف يوماً ما الذي يدور خلف تلك العينين اللتين تشبهان زجاجاً مطفأ.

فجأة، انكسر السكونُ بصوتِ حوافرِ خيلٍ تقتربُ بسرعةٍ هستيرية. لم يكن من المعتاد أن يطرق أحدٌ باب هذا الحقل في هذا الهزيع من الليل. توقفت يدا فتاة القطن عن العجن، لكنها لم تلتفت، لم يرتجف لها جفن، بل بقيت ثابتة في

مكانها كتمثالٍ من طين، وعيناها مثبتتان على العجين بتركيزٍ مرعب.

انفتح البابُ بعنف، ودلف رجلٌ يرتدي برنساً ملكياً ممزقاً، الغبارُ يغطي وجهه لدرجة أنه بدا كأنه خارجٌ من قبر. كان يتنفس بصعوبة، وصوته خرج محشرجاً، حاملاً معه رائحة الفجيعة:

"يا أهل الضيعة.. يا إبراهام الكاتب.. لقد سقطت النجمةُ من سماء فاس! الأميرة ضحى.. قُتلت!"

في تلك اللحظة، شعر إبراهام بأنَّ الزمن قد توقف تماماً. لم يسمع الكلمات بعقله، بل شعر بها كخنجرٍ بارد يُغرس في نخاعه الشوكي. تراءى له وجه ضحى في الليالي الـ 45؛ تذكر ضحكتها التي كانت تشبه رنين الكؤوس، وتذكر برودها الجارح حين طردته. انهمرت عليه الذكريات كالسيل، لكنه لم يبكِ، بل تجمدت الدماء في عروقه. سقط القنديلُ من يده، لينسكب الزيتُ ويشتعل في زاوية الكوخ، لكنه لم يلحظ النار؛ كانت النيرانُ التي تشتعل بداخله أعظم.

نظر إبراهام نحو زوجته، فتاة القطن، ليرى كيف سيكون رد فعلها. وهنا بدأت خيوطُ الرعب تُنسج. لم تصرخ، لم تسأل عن القاتل، ولم تُظهر أياً من علامات الدهشة الريفية البسيطة. ببطءٍ شديد، رفعت يديها الملطختين بالدقيق الأبيض، وبدأت في مسحهما بخرقةٍ حمراء كانت بجانبها. كانت تنظر إلى الخرقة الحمراء وهي تتلطخ بالبياض، وكأنها ترى مشهد القتل بعينيها.

قال الفارس وهو يلهث:

"لقد تسلل إليها قاتلٌ محترف من مدينة تطوان.. لم يترك أثراً سوى خنجرٍ صغير غُرس في قلبها بدقةٍ لا يملكها إلا شيطان. المدينةُ كلها في حداد، والملكُ يطالب برأس القاتل الذي تبخر في الهواء."

بدأ إبراهام يرتجف، ليس حزناً على موت ضحى فحسب، بل من ذلك "الوعي" المفاجئ الذي بدأ يتسلل إلى عقله. تذكر غياب زوجته المتكرر نحو تطوان بحجة زيارة أهلها. تذكر مهاراتها العجيبة في استخدام السكاكين لتنظيف القطن وسرعتها الفائقة. تذكر الصمت الذي كان يغلفها طوال السنتين، وكأنها كانت تؤدي "مهمة" وليست تعيش حياة.

التفتت إليه فتاة القطن أخيراً. ضوء النار المندلعة في الزاوية انعكس في عينيها، فجعلهما تبدوان كأنهما قطعتا جمرٍ ملتهب. قالت بصوتٍ هادئ، هدوءٍ يقطعُ نياط القلب:

"لماذا ترتجف يا إبراهام؟ ألم تكن تريد نسيانها؟ الآن قد نُسيت للأبد. الآن لم يعد لها وجود إلا في التراب.. والترابُ لا يكتبُ الشعر، ولا يخون."

كانت كلماتها تحملُ نبرةً غريبة، نبرةً لا تخرج من فتاة حقول. كانت لغةً مصقولة، لغةً عرفت القصور والمؤامرات. في تلك اللحظة، أدرك إبراهام أنَّ المصيبة لم تأتِ من الخارج مع الفارس، بل كانت تسكنُ معه تحت سقفٍ واحد، وتنامُ في فراشه، وتأكلُ من خبزه

بعد رحيل الفارس، بقي إبراهام مصلوباً في مكانه، بينما كانت النيران الصغيرة في زاوية الكوخ تلتهم الحصائر القشية، نافثةً دخاناً أسود اختلط برائحة الدقيق المحترق. لم

يكن ينظر إلى النار، بل كان ينظر إلى تلك الهيئة الرزينة التي تسمى "زوجته". كانت فتاة القطن قد عادت لتجلس على كرسيها الخشبي القديم، وبدأت في غزل الصوف وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن خبر موت أميرة البلاد ليس سوى خبر عن تساقط المطر في قرية بعيدة.

الرحيل نحو الشمال: مدينة الأسرار البيضاء

لم يستطع إبراهام البقاء دقيقة واحدة إضافية في ذلك الحقل الذي استحال قبراً مفتوحاً. وفي الصباح الباكر، قبل أن تستيقظ الشمس، حزم أمره. لم يودع زوجته، ولم ينظر في عينيها؛ كان يخشى أن يرى فيهما تأكيداً لما يرتجف له قلبه. انطلق نحو تطوان، مدينة الحمامة البيضاء، المدينة التي قال الفارس إن القاتل المحترف جاء منها

استغرقت الرحلة أياماً، كان فيها إبراهام كالمسحور. سار في جبال الريف، وعيناه غائرتان، يمر بالقرى كأنه طيف من أطياف الماضي. وعندما لاحت له أسوار تطوان العالية، شعر بانقباض في صدره؛ فهذه المدينة، ببيوتها الأندلسية البيضاء وأزقتها الضيقة التي تشبه المتاهة، كانت تخبئ خلف جدرانها سر المرأة التي سكنت بيته سنتين.

بدأ إبراهام تحقيقه في "حي المطامير" و"حي الملاح"، حيث يجتمع الغرباء وأصحاب المهن الغامضة. كان يسأل عن عائلات "حاصدي القطن" الذين يرسلون بناتهم للعمل في الجنوب، لكن الإجابات كانت تأتي دائماً محملة بالريبة. وفي ليلة مطيرة، في حانة قديمة تفوح منها رائحة التبغ

والملح، التقى برجل عجوز، أعمى العينين لكنه حاد البصيرة، يلقبونه بـ "حافظ الأنساب السوداء".

قال له العجوز وهو يرتشف شاياً مراً

"يا بني، أنت تبحث عن قطة برية ظننتها أليفة. في تطوان، هناك مدرسة قديمة، مدرسة لا تُعلم الحساب ولا النحو، بل تُعلم كيف يغدو الإنسان صامتاً كالجماد، وكيف يغرس النصل في القلب دون أن تهتز شعرة من جفنه. هناك فتيات يُبعن وهن صغيرات لجهات مجهولة، يُدربن على الصبر والفتك، ثم يُزرعن كبذور في حقول الأعداء.. أو في بيوت المغضوب عليهم."

خيوط المؤامرة: لماذا إبراهام؟

بدأ إبراهام يجمع الخيوط المبعثرة. اكتشف أن زوجته ليست من عائلة فلاحين، بل هي ابنة لسياف سابق في تطوان، اختفت منذ عشر سنوات. واكتشف أيضاً أمراً أرعب كينونته: أن مكافأة ضخمة قد صُرفت من خزينة مجهولة في فاس قبل سنتين، تزامنت تماماً مع اليوم الذي ظهرت فيه "فتاة القطن" في حياته.

سأل نفسه وهو يسير في أزقة تطوان المبللة: "من الذي أراد قتلي وقتلها؟". هل هم السحرة الذين أحبط تمردهم؟ أم هي "ضحى" نفسها التي أرادت وضعه تحت المراقبة؟ أم أنه الملك الذي خشي من قلم كاتب يعرف أسرار القصر؟

لكن الحقيقة كانت أكثر سوداوية. لقد أدرك إبراهام أن وجوده مع فتاة القطن لم يكن صدفة، بل كان جزءاً من "عقاب" طويل الأمد. كان الهدف هو تجريده من إنسانيته

أولاً، ثم حرق قلبه بموت ضحى ثانياً، وأخيراً.. أن يكتشف أن "ملاذه" الوحيد هو "قاتلته".

العودة والمواجهة الكبرى

عاد إبراهام إلى حقول القطن، لكنه لم يعد الرجل المنكسر الذي غادرها. عاد وبداخله وحش من الحقيقة. دلف إلى الكوخ في ليلة كانت الريح فيها تعوي كالأرامل. وجد زوجته تجلس في مكانها المعتاد، تنظف خنجراً طويلاً بقطعة من الحرير الأبيض—نفس الحرير الذي كان يصنع منه ثياب الأميرة.

وقف أمامها وقال بصوت هادئ كالموت:

"لقد زرتُ تطوان.. يا ابنة السياف."

توقفت يدها عن الحركة. ساد صمت ثقيل، صمت تسمع فيه دقات الساعة الرملية وهي تسحق الوقت. لم تلتفت إليه، بل قالت بصوتها الرخيم الذي لم يتغير:

"تطوان جميلة في هذا الوقت من السنة، أليس كذلك؟ هل رأيت أشجار اللوز؟ أم أنك كنت مشغولاً بالبحث عن اسمي في دفاتر الموتى؟"

أجابها وهو يقترب، وعيناه تشتعلان بنار المعرفة:

"لماذا قتلتها؟ هل غيرةً على رجل لم تحبيه يوماً؟ أم لأنكِ أداة في يد غيرك؟"

ضحكت فتاة القطن، وكانت ضحكتها أول مرة يسمعها فيها؛ ضحكة جافة كصوت تكسر العظام:

"قتلتها لأنها كانت 'الأمل' الأخير الذي يربطك بالحياة. لقد طُلب مني ألا أقتلك أنت، بل أن أقتل 'كل ما يجعلك تشعر'. قتلتها لأتمم عملي؛ فالسنتان اللتان قضيتَهما معي كانتا لتمويت روحك، والطعنة التي غرزتها في صدرها كانت لتمويت ذاكرتك. أنا لم أكن زوجتك يا إبراهام.. أنا كنت 'الخاتمة' التي تليق بروايتك الكئيبة."

انقض إبراهام عليها، لا ليقتلها، بل ليمسك بالحقيقة التي بدأت تتلاشى. وفي تلك اللحظة، وسط بياض القطن الذي تلطخ بظلالهما، بدأت "المكاشفة الأخيرة". روى له كيف أن السحرة لم يُهزموا في الجنوب، بل تسللوا إلى القصر، وكيف أنهم استخدموا "فتاة القطن" لتكون هي الطلاسم الحي الذي سيدمر مملكة إبراهام النفسية.

نهاية الورق وبداية الصمت

أدرك إبراهام في تلك اللحظة أن مأساته لم تكن في موت ضحى، ولا في خيانة زوجته، بل في كونه "كاتباً" لم يستطع التنبؤ بنهايته. نظر إلى يده التي كانت يوماً تمسك الريشة، ورأى فيها دماءً وهمية لا تغسلها مياه الأرض.

في تلك الليلة، احترق حقل القطن بالكامل. قيل إن إبراهام هو من أشعل النار، وقيل إن فتاة القطن اختفت في الدخان كأنها لم تكن. لكن الأكيد هو أن أحداً لم يَرَ إبراهام الكاتب بعد ذلك اليوم. ومنذ ذلك الحين، يقول أهل فاس إن الريح عندما تمر فوق بقايا الحقل المحترق، تسمع صوتاً يشبه صرير قلم على ورق يحترق، يروي قصة كاتب أحب أميرة، فقتله "الصمت" الذي اختاره مهرباً

بينما كانت نيران حقل القطن تلتهمُ الأفق في مخيلته، وبينما كان يواجه "ابنة السياف" بنظراته الفولاذية، حدث صدعٌ مفاجئ في جدار الواقع. لم يكن صوتاً، بل كان برودةً غريبة بدأت تسري من أصابع قدميه لتصل إلى نخاعه. تلاشت رائحة الكبريت، وغاب دخان الحريق، وبدأت ملامح "فتاة القطن" تذوب وتتميع كأنها لوحةٌ زيتيّة غسلها المطر، حتى اختفت تماماً.

فتح إبراهام عينيه ببطءٍ شديد، ليجد أنَّ السماء لم تكن حمراء بفعل الحريق، بل كانت بيضاء.. بياضاً ناصعاً، بارداً، ومحدوداً. لم يكن هناك حقل قطن، ولا خيول، ولا جنوبٌ محترق. وجد نفسه مستلقياً على فراشٍ وثير في ركنٍ قصي من دهاليز القصر السفليّة، وجسده مغطى بأثوابٍ قطنية بيضاء، لكنها ليست أثواب فلاحين، بل كانت أثواب "المرضى".

حاول أن ينهض، فشعر بوهنٍ شديد في عضلاته، وكأنها لم تتحرك منذ دهر. كانت يداه، اللتان ظنَّ أنهما تشققتا من حرث الأرض، ناعمتين، شاحبتين كشمع الكنائس، لا أثر فيهما لترابٍ أو دم. نظر حوله برعبٍ طفولي، ليجد بجانبه طاولةً خشبية صغيرة، وعليها رزمةٌ من الأوراق البيضاء الفارغة، ومحبرة جافة لم تلمسها ريشة منذ أمدٍ بعيد.

في تلك اللحظة، انفتح البابُ الثقيل، ودخلت هي.. ضحى.

لم تكن ضحى "الخائنة" التي رآها قبل قليل، ولم تكن الجثة التي نعاها الفارس. كانت هي، بجمالها الذي يفوق الوصف، الجمال الذي لا يمكن لقصيدة أن تحتويه. كانت بشرتها تشعُّ

بنورٍ طبيعي، وعيناها الواسعتان تحملان بريقاً من الشفقة العميقة، شفقةً لا تجرح بل تلملم الشتات. كانت ترتدي ثوباً من الحرير الأخضر، ينسابُ حولها كأمواج نهرٍ هادئ، وشعرها الأسود المنسدل كان يفوح برائحة الياسمين الحقيقي، لا ياسمين الذكرى.

اقتربت منه، ووضعت يدها الدافئة على جبهته، فاهتز كيانه لتلك اللمسة التي لم تكن موجودة في "حلمه" الطويل. قالت بصوتٍ رقيق، كأنه نغمٌ موسيقي يعيد ترتيب الفوضى في رأسه

أخيراً عدتَ إلينا يا إبراهام.. لقد طال غيابك في تلك الظلمة. لقد سقطتَ مغشياً عليك في أول ليلةٍ وطأت فيها قدماك هذا القصر، حين نظرتَ إليّ وأردتَ أن تنطق بأول بيتِ شعرٍ في حضرة الأميرة، فخانك قلبك الضعيف واستسلم لغيبوبةٍ استمرت شهوراً."

تجمعت الدموع في عيني إبراهام، دموعُ العجز والحقيقة المرة. أدرك في تلك اللحظة أن "الـ 45 ليلة"، والتمرد السحري، ورحلة الجنوب، والمواجهات الفلسفية، وزواجه من فتاة القطن، واكتشاف المؤامرة.. كل ذلك لم يكن إلا "هذياناً" صاغه خياله المريض ليعوض به عجزه. لقد خلق من نفسه بطلاً، ومبعوثاً ملكياً، ومحققاً بارعاً، ومظلوماً تراجيدياً، فقط لأنه لم يحتمل حقيقة أنه مجرد "كاتبٍ مغمور" أصابته صدمة الجمال فلم يقوّ على الوقوف أمامها.

نظرت إليه ضحى بابتسامةٍ حزينة، وقالت وهي تشير إلى الأوراق الفارغة:

كنتَ تهمس في نومك بكلماتٍ عجيبة.. عن سحرةٍ وخناجر وقطنٍ أبيض. كنتَ تعيش روايةً كاملة وأنت مستلقٍ هنا بلا حراك. أتعلم يا إبراهام؟ لقد كان خيالك هو القصر الحقيقي الذي سكنتَه، أما أنا.. فكنتُ مجرد امرأةٍ تنتظر استيقاظك لتعرف عماذا كنتَ تكتب."

أمسك إبراهام بالريشة الجافة، وحاول أن يخطَّ أول كلمة، لكن يده ارتجفت. نظر إلى وجه ضحى الجميل، الجمال الذي كان "الحقيقة الوحيدة" وسط ركام أوهامه، وأدرك أنَّ أكبر مأساة للكاتب ليست في أن يموت بطلاً، بل في أن يكتشف أنه لم يبدأ الكتابة بعد، وأنَّ كل حروبه وانتصاراته كانت مجرد "حبرٍ وهمي" انسكب في غرف عقله المظلمة، بينما كانت الحياة الحقيقية، بجمالها الساطع، تنتظر خلف

الباب، صامتةً، وجميلةً.. وبعيدةً جداً عن منال خياله

كانت ضحى في عين إبراهام ليست مجرد امرأة، بل كانت "انفجاراً ضوئياً" لم تحتمله مراكز الإدراك في عقله، وهي الحقيقة التي جعلته يسقط صريعاً في غيبوبته منذ اللحظة الأولى. إليك وصف هذا الجمال الذي صار سجنه الأزلي:

الوجه: معمارٌ من النور والرخام

كان وجه ضحى يشبه فجراً لم يلمسه غبار البشر؛ بشرةٌ بياضها ليس شاحباً، بل هو بياضٌ يسكنه نضارة الحليب الممزوج بماء الورد، صافية لدرجة أنها كانت تعكس ضوء القناديل وكأنها مرآة من مرمر. وجنتاها تحملان حمرةً فطرية خجولة، تظهر وتختفي مع كل نفس، كأنها بتلات ياسمين نبتت لتوها في ظل قصرٍ عتيق. أما جبينها، فكان

واسعاً ومرتفعاً، يوحي بذكاءٍ حاد وكبرياءٍ ملكي لا ينكسر، وكأنه لوحةٌ من العاج لم يخطّ عليها الزمان تجعيدة واحدة.

العينان: بئران من السحر والغموض

عينياها هما اللتان سلبتا إبراهام لُبّه؛ واسعتان كبحرين في ليلةٍ ساكنة، لونهما أسود حالك كليل فاس في شتائها، لكن في أعماقهما بريقاً غامضاً يشبه انعكاس النجوم على سطح بئرٍ عميقة. رموشها كانت كثيفة وطويلة، تضرب وجنتيها كأجنحة فراشاتٍ سوداء كلما أغمضت عينيها، وحاجباها مرسومان بدقةٍ متناهية كأنهما قوسان من الأبنوس أعدا لإطلاق سهام الهوى. كانت نظرتها مزيجاً مرعباً من الحنان القاتل والبرود المهيب، نظرةٌ تجعلك تشعر أنك ملكٌ وصعلوك في آنٍ واحد.

الثغر والابتسامة: فخاخ الكلمات

شفتي ضحى كانتا مرسومتين كقطعة كرزٍ نضجت تحت شمس تموز، ممتلئتان بدلالٍ فطري، ولونهما قرمزيٌّ طبيعي يجعل الورد يغار منهما. عندما كانت تصمت، تبدو كتمثالٍ أندلسي صامت، وعندما كانت تبتسم، كان الفضاء من حولها يتغير؛ تظهر أسنانها كحبات لؤلؤٍ مصفوفة بعناية، وتتشكل على جانبي فمها غمازتان صغيرتان كانتا، بالنسبة لإبراهام، هما المقبرتان اللتان دفن فيهما عقله.

الشعر والجسد: هيبة الحرير

أما شعرها، فكان شلالاً من الليل المتدفق، فاحم السواد، ينسدل على كتفيها بنعومة الحرير الفاخر، وتفوح منه دائماً رائحة الياسمين والمسك العتيق، رائحةٌ كانت تملأ رئة

إبراهام وتخدر حواسه حتى قبل أن تنطق بكلمة. جسدها كان يتمتع برشقاةٍ مهيبة، طويلة كرمحٍ مغطى بالديباج، وحركاتها كانت تتسم بخفةٍ خرافيةً، كأن قدميها لا تلمسان الرخام، بل تطفوان فوقه.

لحظة السقوط (الوصف الحسي)

في تلك اللحظة التي دخل فيها إبراهام القصر، لم يرَ جدراناً ولا حراساً، رأى ضحى فقط. كانت تقف في ضوء القمر المتسلل من نافذة القاعة الكبرى، فبدا جسدها محاطاً بهالةٍ مقدسة. عندما التفتت إليه، ووقعت عيناها في عينيه، شعر إبراهام وكأنَّ صاعقةً من الجمال قد ضربت نخاعه. رائحة عطرها، بياض عنقها الذي يشبه بياض القطن (الذي سكن خياله لاحقاً)، وبريق الذهب على صدرها، كل هذا شكل ضغطاً يفوق قدرة قلبه المنهك من الوحدة والشعر.

لقد كان جمالها "فائقاً للواقع"، لدرجة أن عقل إبراهام، هرباً من احتراق الحواس أمام هذا الكمال، قرر أن يغلق أبواب الوعي، ويدخله في غيبوبته الطويلة، ليخلق "نسخةً" من ضحى في خياله، نسخةً يمكنه أن يحبها، يكرهها، أو حتى يراها تموت.. لأنه في الحقيقة، لم يمتلك الشجاعة الكافية ليعيش ثانيةً واحدة أمام سطوة جمالها الحقيقي

كانت ضحى تجلسُ بجوار سريره في ذلك الركن الهادئ من القصر، حيث يتسللُ ضوء القمر من خلال الزجاج المعشق، ليرسمَ على وجهها ظلالاً أرجوانية تزيدُ من سحرها الغامض. كانت تنظرُ إليه وهو غارقٌ في تشنجات غيبوبته، ترى شفتيه تتحركان بأسماءٍ غريبة، تارةً يهمس بـ "عرق

الرماد" وتارةً يصرخ باسم "فتاة القطن"، وهي لا تملكُ إلا أن تتأملَ هذا الكائن الهش الذي تحطمَ أمام أول نظرةٍ منها.

طقوس الانتظار والأوراق الفارغة

أمام سريره، كانت تضعُ رزمةً من الأوراق البيضاء الفاخرة، تلك الأوراق التي كانت مُعدةً لِيُخلد فيها إبراهام قصائده. لكنها بقيت بيضاء، صامتة، كبياض القطن الذي استوطنَ هلاوسه. كانت ضحى، في لحظات وجدها الصامت، تمسكُ بالريشة وتمررُ ريشها الناعم على جبهته المحمومة، وكأنها تحاول أن تسحبَ الحبر من عروقه لتضعه على الورق.

أحياناً، كانت تميلُ برأسها نحوه، فيسقطُ شعرها الفاحم على صدره كليلٍ لا ينتهي، وتهمسُ في أذنه بكلماتٍ لم يسمعها: "يا إبراهام، أنت تكتبُ الآن أعظم رواياتك في صمتك.. إنَّ الحقول التي تحرثها في خيالك هي أصدقُ من كل ما قد يخطه قلمك". كانت تأخذُ تلك الأوراق الفارغة، وتشمُّ رائحتها، فتخيلُ لها أنها تفوحُ برائحةِ تعبه، وبصديد جراحه الوهمية التي أصيب بها في معارك "أزرو" وسحرة الجنوب.

الربط بين الوهم والحقيقة

بينما كان إبراهام في "صفحته الوهمية" يرى فتاة القطن وهي تراقبُه بصمتٍ مريب، كانت الحقيقةُ أنَّ ضحى هي مَن كانت تراقبه بذاتِ الصمت، ولكن بعينين تفيضان بالجمال واللوعة. تلك النظرة "الزجاجية المطفأة" التي نسبها لزوجته في خياله، لم تكن إلا انعكاساً لنظرته هو إليها في

اللحظة التي سقط فيها مغشياً عليه؛ لقد كانت نظرته هو التي انكسرت، فظنَّ أنَّ الانكسار في عينيها.

الخنجرُ الذي رآه في يد فتاة القطن وهي تمسحه بالحرير، لم يكن في الواقع إلا "مروداً" من العاج كانت ضحى تغمسه في المكحلة لتزين عينيها وهي جالسةٌ بجانبه، تنتظرُ اللحظة التي يعود فيها من رحلة تيهه. بياض القطن الذي صار يراه في كل مكان، لم يكن إلا بياض الملاءات التي كانت تلتفُّ حول جسده، وبياض الأثواب التي كانت ضحى تصرُّ على تبديلها له كل يوم ليبقى نظيفاً في حضرة حبها

الصدمة الختامية: الحقيقة التي تفوق الخيال

في تلك اللحظة التي استيقظ فيها، وجدَ أنَّ ضحى هي "الحصاد الكبير" الذي كانت تعنيه فتاة القطن في حلمه. لم يقتلها القاتل من تطوان، بل قتلها هو في خياله لأنه لم يستطع امتلاكها في الواقع. عندما نظرت إليه ضحى بابتسامتها التي تشبه "المقصلة" في جمالها، أدرك إبراهام أنَّ كل الرعب الذي عاشه مع السحرة كان أهون بآلاف المرات من هذه اللحظة؛ لحظة أن يكتشفَ أنَّ "جمالها" هو السحر الحقيقي الذي لم يستطع إبطاله، وأنَّ "فتاة القطن" لم تكن إلا قناعاً وضعه على وجه ضحى الجميل لكي يجرؤ على النظر إليه.

كانت ضحى تمسكُ بالورقة الأولى، الورقة التي كانت فارغة تماماً، وقالت له وهي تضعُ القلم في يده المرتجفة:

"لقد انتهى زمنُ الأحلام يا كاتب.. الآن، صِفني كما أنا، لا كما تخيلتني في جحيمك".

نظر إبراهام إلى الورقة، ثم إلى وجهها الذي يعلوه جلالُ الملوك ورقةُ الملائكة، فأدرك أنَّه سيمضي ما تبقى من عمره يحاولُ أن يملأ تلك الصفحات بكلماتٍ لن تصل أبداً إلى حقيقة شامةٍ واحدة على عنقها، وأنَّ روايته الكبرى لم تبدأ بعد، ولربما لن تبدأ أبداً، لأنَّ الجمال المطلق هو النهايةُ الطبيعية لكل لغة

أمسك إبراهام بالريشة، وكانت يده ترتعش كغصنٍ وحيد في مهب ريحٍ عاتية، بينما كانت عيناه لا تزالان معلقتين بوجه ضحى، ذلك الوجه الذي كان المحور الذي دارت حوله مجرات أوهامه. غمس الريشة في المحبرة، لكنه لم يخطَّ حرفاً؛ فكيف للغة التي تعثرت في وصف "وهم" أن تستقيم أمام "حقيقة" بهذا الجلال؟

نظرت إليه ضحى، وفي عينيها بريقٌ لا يُفسر، بريقٌ يمزج بين كبرياء الأميرة وحنان السجان الذي يراقب سجين أفكاره وهو يتحرر. وفجأة، انكسر وقار الصمت في الغرفة؛ ضحكت ضحى. لم تكن ضحكةً عادية، بل كانت رنيناً ذهبياً اهتزت له جدران القصر العتيق، ضحكةً بدت لإبراهام كأنها بعثٌ جديد لكل الحواس التي فقدها في غيبوبته. كانت ضحكةً صافية، عميقة، تسخرُ بلطف من كل تلك المآسي التي اختلقها، ومن كل الدماء والقطن والسحر الذي ملأ به رأسه.

تسمر إبراهام في مكانه، وألقى بالريشة جانباً، فلطخت الورقة البيضاء ببقعة حبر كبيرة، بدت كأنها النقطة الأخيرة في كتابِ حياته القديم. همس وصوته يتهدج

"يا ضحى.. إنَّ سحرة الجنوب الذين هزمتهم في خيالي لم يملكوا طلسماً واحداً يشبه هذه الضحكة. لقد كنتُ أبحث عن "المعنى" في الحروب والخيانة، بينما كان المعنى كله يختبئ في ثنايا ثغرك حين ينفرج عن هذا النور. إنَّ ضحكتكِ هذه هي القصيدة التي عجزتُ عن كتابتها لـ 45 ليلة، وهي السيمفونية التي حطمت قيود صمتي. لو كان لي أن أختار بين العودة لبطولاتي الوهمية أو البقاء سجيناً للأبد في صدى هذه الضحكة، لاخترتُ السجن.. لاخترتُ أن أكون مجرد صدىً تائهٍ في فضاء فرحك

توقفت ضحى عن الضحك ببطء، وبقيت الابتسامة عالقة على شفتيها كخيط فجرٍ يرفض الرحيل. مدّت يدها، ولمست الورقة الملطخة بالحبر، ثم نظرت إليه بنظرةٍ غامضة، نظرةٍ تركت كل شيء معلقاً بين السماء والأرض. لم تقل له إن كان سيبقى، ولم تخبره إن كانت تحبه حقاً أم أنها كانت تشفق على جنونه.

قامت من مقعدها، واتجهت نحو النافذة الكبيرة المطلة على مدينة فاس التي بدأت تستيقظ تحت ضوء الشمس الحقيقي. وقفت هناك، وظهرها له، بينما كان هو لا يزال جالساً أمام ورقته الملطخة، يراقب خصلات شعرها التي تداعبها الريح. هل سيبدأ الكتابة الآن؟ أم أنَّ الحبر الذي سقط كان إعلاناً بجفاف الروح؟ هل كانت ضحكتها دعوةً للحياة، أم أنها كانت سخرية القدر الأخيرة من كاتبٍ ضيَّع عمره في مطاردة الظلال؟

بقي الباب مواراً، وبقيت الريشة ملقاة على الرخام، وبقي إبراهام عالقاً في البرزخ بين "الجمال" الذي لا يُوصف، و"الورق" الذي لا يرحم.

بالحقيقة ضحى هي الجميلة التي اتت بالصدفة ولم تخرج من بالي ولو للحظة اعلم اني اهدرت حب الاميرة بالبعد عنها وما لي سوا ان اعتذر واسجد خاشعا مستغفرا ذنبي وادعو بفرصة وان كنت لا استحقها فهل تعود لي جميلتي لاعيش ليالي عمري معها اعلم انك تقرائين هذا اتكرمين علي بنظرة يا اميرتي

توضيح : هذه مجرد الذكريات التي حدثت مع ابراهام الرواية الكاملة سيتم نشرها في معرض القاهرة ومكاتب محلية في المغرب وإضافة الى بعض المواقع على الإنترنت

موعد النشر باذن الله

19/8 حين تجسد الجمال وخلق

تمت بحمدالله